(٨٢)

"الحرية حياة"

تعالت الهتافات تهز أسوار السجون: "أخرجونا من الزنازين لنتنفس النسيم العليل، ونبصر الضوء المنير" ... ولكن الأوامر التى أملِيت على السجان الواقف أمام كل زنزانة كانت تقضى بعدم إطلاق سراح أى من المسجونين، بل مراعاة الاحتفاظ بهم أحياء مهما تمكّن المرض من أجسادهم، أو نهش الجوع فى أحشائهم. ومع مضى الوقت كانت الزنازين تضيق بالمسجونين، حتى كادت تخنقهم وتختنق معهم. ومع ارتفاع ضجيج الآهات واختراق الصرخات لكل حاجز يمنع وصول الصوت، لم يكن أحدٌ فى الخارج يريد أن يلتفت لما يحدث داخل هذه الزنازين من فوضى وهياج، بل ظن كل من بالخارج أن كل اشتعال بالداخل سينطفئ ذاتيًا بمضى الوقت، ومهما تأججت نيرانه فسيظل كل من بالخارج فى أمان.

واستمرت الهتافات ولم تنقطع برغم ضعف بنيان أصحابها وهزال أجسادهم، واستمر إحكام أقفال الزنازين، واحتقار كل من بداخلها، واستمرت الحياة خارج الزنازين تعج بالنشاط والحيوية، وتضج بالبذخ والإسراف. ومثلما استمر الموت ينهش أجساد الفقراء والمحتاجين خارج الزنازين، وينهى حياة الضعفاء والمقهورين وراء أسوارها، استمرت الحياة أيضًا بلعبها ولهوها تداعب المختالين والمفتونين، وتبسط كل أياديها للعالين والمتنعمين. ولم يكن

يقطع تواصل ذلك الاستمرار المسلَّم به سوى رغبة مالكى الزنازين فى الاطمئنان بين حينٍ وآخر على أسراهم ومسجونيهم المقيدين بالأغلال والمكبلين بالأصفاد؛ ليُطلِعوا العالم من حولهم أنهم أنفسهم مستعدون لإطلاق سراح كل سجين وأسير شريطة أن يكون هو على استعداد تام لتحمل تبعات حريته، وقادرًا على الوفاء بمسئولياتها.

وفى نهاية كل زيارة للسجون كانت الكلمات المحفوظة، والثابتة بمرور السنين، من السجانين لنزلاء الزنازين هى ما أعلنوه على الملأ من أنه قد تم تأجيل منح الحرية للمسجونين لحين استعدادهم لها، واستحقاقهم إياها، فى حين كانت هناك جملٌ أخرى أسروها فى أنفسهم، ولم يطلعوا أحدًا عليها، ولم يجرؤوا على إطلاق سراحها خارج أفواههم، ومفادها هو: أنه إذا كان سيتم إعادة غلق الزنازين على نزلائها المأسورين لحين صدور قرارنا بشأنهم حال تأكدنا من حالة استعدادهم لمنحهم حرياتهم، فسنعيش نحن الحياة التى تفتح ذراعيها للقادرين عليها، والمحبين لها، والمضحين بالغالى والنفيس من أجلها، ومن ثم المستحقين لها، وغير الخاضعين لمن يمنحها لهم أو يمنعها عنهم.